(١١) تربية العالِم الرباني

(الإعداد الضعيف في الجامعات)

د. صلاح سلطان:

نستكمل الأسباب التي أدت إلى انفصال العالِم عن الواقع الذي يعيش فيه وأثره في أن يُحرم التوفيق، لأن هناك معادلات أو القوانين الربانية، الإمام بن الجزيل المالكي له كتاب اسمه القوانين الفقهية، لكن كما قال الله تعالى: {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: ٤٣]، فهذه السنن التي تجري على خلق الله سبحانه وتعالى جَرت على العلماء، عندما حدث هذا الخِواء الروحي صار العالِم يرى الهموم فقط وقد حُرِمَ المدد الرباني، فكيف له أن يصلح الناس وهو من داخله غير صالح، وقال الله تعالى: {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم: ٤٣]

هل ترى هناك أسباب أخرى غير هذا السبب أدت إلى هذا الانفصال بين العالِم والواقع؟

د. راغب السرجاني:

بداية أنا ألوم بشدة على كثيرٍ من الجامعات الإسلامية وكثيرٍ من العلماء الذين يُدَّرِسون في هذه الجامعات الإسلامية في الكليات المتخصصة، فعندهم الشباب المتحضر المتحمس الذي يطمح إلى التغيير، ثم إذا به يدخل هذه الكليات ولمدة أربع سنوات يدرس دراسة أقل ما يمكن أن توصف به هي دراسة نظرية، لا يخلطه مطلقا بمجتمعه فيصبح هذا نواة العالم، يصبح مظلومًا.

فأنا أرى كثيرًا من علماء الأمة هم المظلومين، مظلومين لأنهم درسوا على أيدي علماء دَرَسوهم الأمر بشكل أكاديمي بحت لدرجة أنه يصرف أعماره وأوقاته على الدراسة دون أن يسقطها على واقعه.

والحقيقة أنا نتيجة عملي في موقع قصة الإسلام واختلاطي بعدد كبير من الباحثين من الطلبة، عندما انهوا كلية دار علوم أو لغة عربية قسم تاريخ، فألتقي مع هؤلاء واجد أن الطالب نواة عالِم جيدة جدا ولديه حسن الرؤية وقدرة على الاستنباط، لكنه تعلم بشكل اكاديمي بحت، ويمكن أن يكون درس الماجيستير والدكتوراه في دراسة خاصة بأمور هندسية لمسجد ما لكنه لا يعلم أن هذا المسجد كان له دور في نهضة الأمة ودور في حركة البشرية كلها ودور في كذا وكذا لكنه لا يلمس هذه اشياء، هو فقط ينظر إلى قضية معينة، لكنه انعزل بهذه القضايا عن أمته انعزالًا كاملًا.

أنا أرى أن هذا التدريس الأكاديمي الذي يأخذ النص فلا يفكر أصلا كيف يستفيد به في حياة الناس، هذه مشكلة في التدريس، وأحد أسباب الانفصال.

د. صلاح:

في هذه المسألة في كلية الهندسة مثلا الطالب لا يتخرج دون مشروع وكل عام لديه مشاريع فيذهب إلى الجهات الميدانية في تخصصه، إذا كان في عمارة أو مدني أو اتصالات ويكون له راي وإضافة، وكذلك في كلية الطب يجب عليه أن يرى تشريح الأجساد ويعمل لمدة سنة امتياز يبحث عن جميع التخصصات ولن يُسمى طبيب إلا بعد انهاء هذه السنة من العمل في الميدان الطبي وليس فقط دراسة نظرية، لكن تجد هذا الأمر في كل الكليات، أما كليات التربية لا تجد إلا الدراسة البحتة النظرية!

وأنا وجدت عدد كبير من الطلاب يدرس اللغة العربية الا أن منهم الكثير لا يُحسن كتابة جملة واحدة، لا يستطيع ألا أن يسرد ما حفظه في الامتحان النظرية، هذه الورقة التي صيغت بنفس عقلية الاستاذ النظري البحت ،الذي لم يُخبر الطالب أن يأخذ الكلام الذي درسه ويسقطه على الواقع وان يأخذ المنهجية.

لماذا ندرس التفصيليات نظريًا ولا تؤدي إلى منهجيات تستطيع أن تعالج بها المشاكل؟

د. راغب:

ذلك لأن الهدف ذائل، ولأن القضية أصبحت للطالب قضية الحصول على الشهادة للعمل بها في مكان كذا وكذا، والاستاذ المعين في الكلية، معيد ومدرس أو مدرس مساعد وعميد، هو كل غرضه ورقة الترقية والصعود في السلم الوظيفي وليس الغرض تغيير مسار الأمة إلى الأفضل وتحسين الأوضاع ونقض المشاكل التي تمر بها الأمة.

وهنا أذكر موقفين للرسول صل الله عليه وسلم التي تعلمنا قضية العملية، أي أنني عندما أحصل على معلومة ما يكون عليَّ أن أفكر كيف أحول هذه المعلومة إلى عمل تستفيد الأمة منه.

الموقف الأول هو حديث يحكي فيه الرسول صل الله عليه وسلم عن قصة الدجال، وكل معلومة داخل الحديث يمكن أن يتم الحديث عنها أكثر من ٣ آلاف حوار وإن كنا في مكان الصحابة كنا سنسأل كثيرا، في حين أن الصحابة كانوا جالسين في صمت مستمر إلى أن مرت كلمة فلم يستطع احدهم أن يستمر في الصمت وتكلم، وذلك عندما قال الرسول صل الله عليه وسلم في الحديث: «قُلنا : يا رسولَ اللَّهِ وما لُبثُهُ في الأرضِ ؟ قال : أربَعين يومًا، يومٌ كَسنةٍ، ويومٌ كشَهْرٍ، ويومٌ كجُمعةٍ، وسائرُ أيَّامِهِ كأيَّامِكُم قال : قُلنا: يا رسولَ اللَّهِ أرأيتَ اليومَ الَّذي كالسَّنةِ أتكفينا في صلاةُ يومٍ ؟ قال : لا، ولكن اقدُروا لهُ».

الراوي: النواس بن سمعان -المحدث: الألباني

المصدر: صحيح الترمذي -الصفحة أو الرقم: ٢٢٤٠

خلاصة حكم المحدث: صحيح

وهنا لفتة رائعة، الصحابي هنا يفكر أولا في الصلاة، فهذا رجل عملي وفكره عملي جدا، فأثناء كل ما سمعه من معلومات غريبة وعجيبة إلا أن ما يهمه فقط كيف سيصلي في هذا اليوم.

د. صلاح:

عندما سُئِلَ الرسول صل الله عليه وسلم لماذا يبدو الهلال في أول الشهر دقيقة ثم يكبُر حتى يصير بدرا ثم يعود فيصير هلالا، فأنزل الله تعالى آية ليصرف عنهم هذا السؤال النظرين رغم أنه ممكن أن يكون سؤال مهم في الإعجاز والكون، فيقول: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [البقرة: ١٨٩] ثم يقول بشكل واضح {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا} وكأنه يقول لك لا تأخذ معلومات نظرية فقط للدماغ، وإنما لتنزل إلى جذع القلب فتكون خشية قلبية ثم إلى النفس فتكون حركة فعلية لتطهير المجتمع والأمة والعالم، فيقول الله سبحانه وتعالى: {وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}

د. راغب:

الله يُعَلِّمنا ويُعَلِّم كل العلماء، الذي أتمنى أن نكون منهم أن شاء الله، ليكونوا علماء ربانين يفقهون دينهم وواقعهم.

والموقف الآخر هو أن يأتي رجل يسأل رسول الله صل الله عليه وسلم فقال: متى الساعة؟، والسؤال هذا به شغف بالغيب والمستقبل وهذا يشغل كل الناس، لكن الرسول صل الله عليه وسلم قام بصرفه عن هذه القضية تماما وقال له: «وماذا أعْدَدْتَ لها ؟»

الراوي: أنس بن مالك -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري -الصفحة أو الرقم: ٣٦٨٨

خلاصة حكم المحدث: صحيح

فلتفرض أن الساعة أتت، ماذا سيكون حالك وقتها مع الله؟، من مات قامت قيامته، فهل أنت مستعد؟

والناس الآن منشغلة بقضية انتهاء العالم بحلول الألفية كذا وكذا؟

يا إخواننا ماذا فعلتم للساعة؟!

ويظهر آخرون وقالوا أن المهدي ظهر!

د. صلاح:

بخصوص المهدي، الناس الآن تريد أن تنام في بيوتها، وتنتظر ظهور المهدي! المهدي الذي سيحتاج إلى جيش من الأمة!!

د. راغب:

وهذه القضية خطيرة، لأن من لن يكون في جيش المهدي فسيكون في جيش الدجال، لا مكان آخر غيرهم!

فالقضية هي قضية عملية، وهذا البُعد نريد أن نزرعه في العالم الرباني، وعندما يقرأ نص ما عليه أن يُسقِطه على واقع الأمة وحياة الناس.

د. صلاح:

سيدنا عمر كان عنده هذه المنهجية وصرف الناس إلى العمل، هناك قضيتين وتصرف مع كل منهما بشكل مختلف.

١- الأولى قضية الكلالة: عند نزول قضية الكلالة، قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «ما رَاجَعْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم في شيءٍ ما راجَعْتُه في الكَلَالَةِ، وما أَغْلَظَ لي في شيءٍ ما أَغْلَظَ لي فيه، حتى طَعَنَ بإصبعِه في صدري، فقال: يا عمرُ، ألا تَكْفيك آيةُ الصَّيْفِ التي في آخرِ سورةِ النساءِ؟»

المحدث: مسلم -المصدر: صحيح مسلم

الصفحة أو الرقم: ٥٦٧-خلاصة حكم المحدث: صحيح

فالرسول أراد أن يجعله يفكر بنفسه، وهذا الكلام موجود في الإتقان للإمام السيوطي، فيقول سيدنا عمر، ظللت أبحث عن الكلالة، وعندما جاء على فراش الموت يقول: أموت وفي نفسي شيء من الكلالة، وذلك لأن بها توزيع مواريث وبها حقوق عمليه، فهي حكم فقهي ينبني عليه عمل.

٢- الثانية، قرأ عمرُ بنُ الخطَّابِ {عَبَسَ وَتَوَلَّى} [عبس:١] فلمَّا أتى على هذهِ الآيةَ {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس:٣١] قال: عرَفنا ما الفاكِهَةُ، فما الأَبُّ ؟ فقال: لعَمرُك يا ابنَ الخطَّابِ أن هذا لهوَ التَّكَلُّفُ.

الراوي: أنس بن مالك -المحدث: ابن كثير

المصدر: تفسير القرآن -الصفحة أو الرقم: ٣٤٨/٨

خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح

فالفاكهة طعام الإنس والأبُّ طعام الماشية، وكانت نظرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهذا الآمر أنه لا يستحق الوقف عنده، لذلك عمر بن الخطاب استطاع أن يؤسس أمة.

وأيضا حدث أن امرأةً قتلَتْ ضُرَّتَها بعمودِ فُسطاطٍ. فأُتِيَ فيه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فقضى على عاقلتِها بالدِّيةِ. وكانت حاملًا. فقضى في الجنينِ بغُرَّةٍ. فقال بعضُ عصبتِها (أَنَدِي من لا طعِمَ ولا شربَ ولا صاح فاستهلَّ ؟ ومثلُ ذلك يُطَلُّ ؟ قال : فقال "سَجعٌ كسجعِ الأعرابِ؟". وفي روايةٍ : بإسنادِهم الحديثَ بقصتِه. غيرَ أن فيه : فأُسقِطَتْ. فرُفع ذلك إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقضى فيه بغُرَّةٍ. وجعله على أولياءِ المرأةِ. ولم يذكر في الحديث : دِيةَ المرأةِ.

الراوي: المغيرة بن شعبة -المحدث: مسلم

المصدر: صحيح مسلم -الصفحة أو الرقم: ١٦٨٢

خلاصة حكم المحدث: صحيح

و عندما علم سيدنا عمر أن رجل من التابعين بدأ يتكلم في القضاء والقدر، كلام نظريا ويثير حوله إشكالات، فأرسل إلى والى الكوفة في هذا الوقت وكان سيدنا أبو موسى الأشعري وأمره أن يمنعه من الكلام عن القدر متأسيا برسول الله صل الله عليه وسلم :«وإذا ذُكِرَ القدرُ فأَمْسِكُوا»

الراوي: عبدالله بن مسعود وثوبان وعمر بن الخطاب المحدث: الألباني

المصدر: صحيح الجامع - الصفحة أو الرقم: ٥٤٥

خلاصة حكم المحدث: صحيح

أما عندما تكلم المسلمين في هذه الأمور، فتركوا المشكلات الواقعية، وصارت الجيوش تدخل فيقولون هذا من قدر الله علينا أن نبتلى بهؤلاء فنصبر له ونحتسب، هذا شغل المتنطعين، وكما قال رسول الله صل الله عليه وسلم: »هلك المتنطِّعون» قالها ثلاثًا.

الراوي: عبدالله بن مسعود -المحدث: مسلم

المصدر: صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: ٢٦٧٠

خلاصة حكم المحدث: صحيح

إنما صاحب الرسالة من العلماء الربانيون نريدهم أن يتمثلوا هذا القول:

إِذَا القَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتًى خِلْتُ أَنَّنِي *** عُنِيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

طَرَفَة بن العبد

قد رشَّحوك لأمرٍ أن فطِنتَ لهُ *** فاربأْ بنفسكَ أن ترعى مع الهَمَلِ

الطغرائي

أتمنى ممن يحملون الشهادات العلمية عندما يسمعون هذه الحلقة، ألا يعتبر نفسه قد تَخَرَّجَ من دراسته، بل يعتبر أن العلماء والشيوخ الذين درسوه في المدارس والجامعات فقط اعطوه فرصة لثلث العلم وهو جانب فقه النص.

إنما فقه الواقع فلم يتعلم به، فعليه أن يتعلم بنفسه، ولا يسمح لنفسه أن يُفتي ولا يسمح لنفسه أن يعتقد بداخله أنه صار من أهل العلم فكلنا من طلاب العلم ولسنا من أهل العلم.

عندما سُئِلَ أحمد بن حنبل متى يكون الرجل عالما؟، قال: (قال الشعبي : العلم ثلاثة أشبار: فمن نال شبرًا منه شمخ بأنفه، وظن أنَّه ناله، ومن نال منه الشبر الثاني صغرت إليه نفسه، وعلم أن لم ينله، وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحدًا أبدًا).

فالدراسة النظرية فصلتنا عن الواقع ولا تنزل بنا إلى الواقع.

د. راغب:

ليس لمجرد النزول إلى الواقع وإنما نزول لتغيير الواقع وليس لزيادة العبء.

الأستاذ والعالِم القدير دوره أنه يزرع في قلوب الطلبة الحَمِيّة لهذا الدين، الحركة لتغيير واقع الأمة الإسلامية، النشاط لنهضة الأمة الإسلامية، وفي نفس الوقت يعطي له المعلومة ليقوم بتوظيفها ويتحاور معه، فيكون هذا الطالب النواة الطيبة للعالِم وعنصر فعال في بناء الأمة الإسلامية وليس فقط مجرد حافظ للمجلدات.

كان لدي أحد الباحثين، ما شاء الله، لا تكلمه في قضية من القضايا الا وله بها علم أو معلومة أو كلمة يقولها لك، لكن بتطبيق هذا في البحوث فلا تجده، وأنا والله كنت أشفق عليه كثيرا لأنه كان نواة طيبة جدا لكن للأسف التدريس والتعليم ونقل العلم إليهم بهذه الصورة يميت مواهب ضخمة جدا وهذا للأسف ليس فقط في بلد واحد ولكنه في بلاد كثيرة وهذه الظاهرة تخرج اعداد هائلة من الطلاب، فلو صلح هؤلاء لصلح الأمة الإسلامية بل لصلح العالم أجمع.

د. صلاح:

ولهذا نوجه رسالة حب وتقدير ورجاء إلى علمائنا في الأزهر والكليات الشرعية في كل دول العالم الإسلامي، نرجوكم بالله عز وجل أنقلوا طلاب العلم من الدراسة النظرية فقط، لا تدعوهم يخوضون لُجّة الحياة الواقعية دون مجاديف لهذا القارب وسط هذه الأمواج من الفتن المتلاطمة.

دربوهم من أول يوم أن يدرسوا نظريا وأيضا أن يكون في الدراسة جزءا عمليا.

يجب أن تكون اللوائح عنصر مساعد للوصول إلى طالب متميز عنده فقه النص وفقه الواقع وفقه إنزال النص على الواقع.

لا بد أن نسعى بقوة إلى تغيير في المناهج يجعل جزءا من التقويم للطالب، جزءا من المنهج الأساسي ومن طريقة تدريس الاستاذ، أن يعيش الواقع ويدرسه، ويعالج مشكلات الواقع ولا يقتصر على وصف وتحليل أمراض الواقع وانما وصف تدقيق وتحليل عميق وحلول مناسبة.

وكذلك أي شخص في العالم يعتبر تخرجه إنما أنه فقط أخذ قسط من العلم وقسط من المعلومات،

عندما زرت إحدى دول الخليج جاءتني بنت وقالت لي انها طالبة في الجامعة وتحصل باستمرار على درجات عالية جدا وتقدم لخطبتها بن عمها وهو لم يحصل الا على الإعدادية، ومن نظرتي للواقع الحقيقة الذي عشته وقتها في مصر قلت لها أن هذا الأمر قد يحدث بسببه حساسية كبيرة لدى الزوج يمكن أن تصل إلى أنه يتصور أن زوجته تحتقره لأنها اعلى منه في مستوى التعليم وغير ذلك من المشاكل، وقلت لها الأفضل أن هذا الأمر لا يتم، وعندما ذهبت البنت تكلمت مع أحد من أبناء البلد وسألته هل توجد جامعة أخرى في هذه البلد فقال لي لا، قلت له لكن هذه الجامعة ٨٠% منها بنات فقط، قال لي نعم، قلت له كيف سيتزوجون؟، فناديت هذه البنت ثانية وأخبرتها أن تنظر إلى أخلاقه وصفاته وأوصيتها ألا يظهر منها أي نوع من التعالي عليه، فرؤيتي إلى الواقع في هذا البلد حلّ المشكلة.

د. راغب:

وهذا أصل من أصول الفقه، أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والظروف، وهذا ما يفهمه العالِم الرباني، فالفتوى ما لم تتغير بفقه المكان والزمان والظروف تصبح كارثة.

ونحن رأينا في أوربا وأمريكا من يفتي هناك بفتوى، تصلح في مصر أو المغرب أو غيرها ولا تصلح مطلقا في إيطاليا أو إنجلترا أو دول الغرب، وقد يكون في ظرف واحد لكن المكان مختلف، وقد يكون الزمن مختلف، ففتوى تصلح في عام ١٩٠٠ قد لا تصلح في عام ٢٠٠٠، والظروف التي يتعرض لها نفس الشخص تختلف عن شخص آخر.

أنا أذكر موقف رائع لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما، وهو عالم حَبر وهو الذي دعا له الرسول عليه الصلاة والسلام اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، عندا مر عليه رجل فيقول له: يا بن عباس هل للقاتل توبة؟، فيقول له ليست له توبة، قال الله {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣] وذكر له أنه مستحيل أن تقبل منه التوبة.

ثم ذهب الرجل وجاء في نفس المجلس رجل آخر وقال: يا عبد الله بن عباس هل للرجل توبة، قال له نعم له توبة، وذكر له قصة الرجل الذي قتل ٩٩ نفسا، ثم تاب الله بعد ذلك عليه وانصرف الرجل

فجاء أصحاب بن عباس وقالوا له ماذا فعلت؟ فرجلٌ أفتيت له بأنه لا تجوز له توبة، وفي نفس المجلس أفتيت لرجل آخر أنه تجوز له التوبة

فقال: هذا الرجل الأول في عينيه القتل، لكن الرجل الآخر في عينيه الندم ويريد أن يتوب.

فتتبعوا الرجلين، فوجودا أن عبد الله كان صحيحا، الأول كان يعزم على القتل فردعه عندما قال له أنه لا توبة له فامتنع الرجل عن القتل، أما الثاني كان قتل بالفعل ويريد أن يتوب ففتح له باب التوبة.

هذا الفقيه عبد الله بن عباس درس الواقع وانزل الفتوى على الواقع الذي يعيشه، وهذا العالِم الرباني الذي نريده.

د. صلاح:

هذا ما قال الله فيه: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ} [الحجر: ٧٥]، والتوسم به فراسة والفراسة تحتاج إلى إمام وإلى صلة بالرحمن.

فهي منظومة واحدة أن يصل الإنسان قلبه بالله تعالى وأن يصل قلبه بالناس أيضا، {إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} [آل عمران: ١١٢]، فيلزم الحبلين معا وإلا ضاع وانقطع والعياذ بالله وهوى في وادٍ سحيق.

وأخيرًا، نؤكد على أهمية تغيير المناهج وعلى هذا الرجاء من المسؤولين على المناهج التعليمية، فلا يمكن أن يكون مقبولًا في الكليات العملية أنها تجمع بين الأمرين وتبقى كلياتنا تدرس أمرًا نظريًا فإذا جاء الطالب إلى الميدان لا يحسن السباحة في بحر لم يدخل فيه.

نحن نُعَلِّم الطلاب الشريعة الاسلامية والسباحة في الحقول وليس في البحار، نريدهم أن ينزلوا البحر ويتعلموا الغوص وأن يستخرجوا الدرر والألئ بإذن الله تبارك وتعالى.